تصدير

الثقافة ذلك الإصطلاح البراق الذي يستحوذ على العقل ويأسر القلوب إنما هو اصطلاح اختلف حوله الفلاسفة والعلماء وحاروا في تفسيره وتجلياته ؛ فهل الثقافة هي الإطار النظري الذي يحكم السلوك الإنسانى بمعنى هل هى المبادئ العامة التى يؤمن بها فرد ما أو شعب ما ويسلك وفقًا لها؟! أم هى فى المظاهر السلوكية التى يسلكها أى فرد أو أى شعب؟! أم هى مجموع هذين، أى أنها هى تلك المبادئ العامة أو المعتقدات العامة لأى فرد أو أى شعب وهى فى ذات الوقت ما تتبدى فى سلوكه أو فى سلوكهم . وسواء كان هذا أو ذاك فالحكم على أى فرد أو أى شعب إنما يكون من خلال ثقافته وما يؤمن به من معتقدات دينية وأخلاقية ومن مبادئ سياسية واقتصادية .. إلخ . وثقافة أى أمة إنما هى مرآتها والعلامة البارزة عليها . ولا يمكن الحكم على أى شعب أو على أى أمة إلا إذا عرفت ثقافتها وخبرت قيم أفرادها .

وهذه هى خطورة الثقافة، إنها الوجه اللامع لحضارة أى أمة . ومن ثم كان التداخل والخلط بين مصطلحى «الثقافة» و«الحضارة» Civiliazation-culture فهل الثقافة هى الحضارة، والحضارة هى الثقافة أم ينبغى التمييز بين الإثنين وما علاقة كلاهما بمصطلح آخر هو المدنية؟!

وما هى علاقة هذه المصطلحات الثلاث بمفهوم التقدم وكيف يمكن أن نقيس تقدم أى أمة، هل بثقافتها أم بما لديها من مظاهر مدنية؟! وهل يمكن أن نعتبر أن التقدم مقصور على ما نشاهده لدى أى شعب أو أى دولة من مظاهر

التقدم التقنى والسياسى والعسكرى وخلافه من مظاهر التقدم المادية أم أن القياس الأفضل للتقدم يكون فى مجموعة القيم والمبادئ الدينية والأخلاقية لأى شعب؟! وعمومًا ما هى أوجه التشابه والإختلاف بين «التقدم» و«التنمية» وهذا الأخير مصطلح جديد بدأ يظهر على الساحة فى علوم السياسة والإجتماع ويأخذ أبعادًا واسعة فى تقويم الأمم والشعوب وأصبحنا نفرق بين دول العالم ونصنفها على أساسه؛ فهذه دول العالم الأول وتلك دول العالم الثالث وبين هذه وتلك نتحدث عن الدول النامية! فهل الدول النامية هي الدول المتقدمة أم الدول الأخذة في التقدم وما هو مقياس نمو الدول وسيرها على طريق التقدم هل هو فقط مقدار ما لديها من إنتاج وثروة أم مقدرتها على الإكتفاء الذاتى من الموارد؟! وكيف نقيس تخلف الأمم هل بمقدار ما لدى شعبها من ثروة وإنتاج أم أن التخلف والتقدم لا يرتبطان فقط بمسألة الثروة الإقتصادية والمنتجات المادية بقدر ما يرتبطان بما لدى هذا الشعب أو تلك الدول والأمم من قيم أخلاقية ومن رؤية دينية يؤمنون بها حول الوجود والكون؟!

الحقيقة أن كل هذه وغيرها تساؤلات يطرحها هذا الكتاب محاولاً أن يقدم إجابات عنها من خلال ما يتبناه صاحبه من رؤى ووجهات نظر قد تتقاطع مع غيرها مما لدى الكتاب الغربيين والعرب وقد تختلف معها. فهى أولاً وأخيرًا تساؤلات وإجابات أطرحها في إطار ما أسميه «النقد الثقافى» : إذ لا يزال البحث فى ثقافة أى شعب وقياس مدى تقدمه أو تخلفه يحتاج للمزيد من الفحص والدراسة ليس بالمعايير الغربية المادية بل بمعاييرنا نحن ، المعايير الشرقية – العربية – الإسلامية. إن لدينا رؤية خاصة لكل هذه المفاهيم والإصطلاحات. وقد حاولنا تطبيق هذه الرؤية على الثقافة بوجه عام وعلى علاقتها بمفاهيم وموضوعات مثل العولمة والتقدم والتنمية وبقدر أصالة الرؤية العامة حول محددات الثقافة وفلسفة الثقافة بقدر أصالة ما نقدمه داخل دفتى هذا الكتاب

حول العولمة الثقافية وأخلاقيات العولمة وحول علاقة الثقافة بالتقدم والتنمية والتخلف ولا شك أن مشاركتك معنا أيها القارئ الكريم فى الحوار حول كل هذه المفاهيم والموضوعات مسألة فى غاية الأهمية لأننا نريد أن نكون مشاركين فى ثقافة العصر وقادرين على التأثير فيه كما يؤثر هو فينا فأهلا بك مشاركًا بالرأى بقدر ما تقرأ الموجود بين دفتى هذا الكتاب.

والله من وراء القصد وهو المستعان . .

د. مصطفى النشار

مدينة نصر فى 28/10/2011

تصدير الطبعة الأولى

الثقافة .. التقدم .. الحضارة .. التنمية مصطلحات كثر استخدامها وأصبحت من المصطلحات الدارجة الاستخدام فى عصرنا الحاضر .

ولما كنا نعيش العصر ونعايش مشكلاته وقضاياه بما تفرضه علينا من مصطلحات وتداعيات . فقد كان لزامًا علينا أن نتعامل مع هذه المصطلحات وفرق كبير بين أن نتعامل معها ونحن واعين بمعانيها وبالعلاقات المتعددة بينها ، وبين أن نستخدمها دون وعى بهذه المعانى والعلاقات .

وفرق كبير آخر بين أن نعى معانيها والعلاقات بينها من منظور غربى طرحه مفكرو الغرب وفلاسفته وعلماء الاجتماع والتاريخ والسياسة الغربية ، وبين أن نحاول نحن الدخول إلى حلبة الفكر لنشارك فى إبداع مفاهيم خاصة بنا حول هذه المصطلحات الشائعة ، وهى مفاهيم قد تتلاقى أو قد تتشابك مع التعريفات الغربية لهذه المصطلحات أو قد تختلف عنها ، لكنها فى النهاية ستكون معبرة عن وجهة نظرنا تجاهها ، وعن رأينا حول كيفية تصورنا للعلاقة بينها .

إن الحقيقة التى أرها ماثلة أمامى صباح - مساء أننا لم نعد نملك ترف الاكتفاء بالنقل عن الغربيين والاحتفاء بما يقولونه أيًا كان موضوعه وأيًا كانت أغراضه أو منطلقاته وأهدافه. فنحن على أبواب قرن جديد ينبغى أن لا نكتفى فيه بموقف المتلقى أو المتفرج ، بل يجب أن يكون لنا موقفنا من كل ما يطرح، يجب أن نقف موقف المشارك الإيجابي وليس موقف المتلقى السلبى. ويجب أن يكون لنا موقفنا المستقل من كل ما يطرح من قضايا الثقافة والتقدم والتنمية .

وبالطبع فإن الموقف المستقل ينبغى أن ينبع من ذاتيتنا الثقافية المستقلة من العمق الحضارى الذى نحمله على ظهرنا ، فنحوله من مجرد ماضٍ تاريخى إلى ماضى حى فى عقولنا وفى وعينا حتى نمرر عليه كل ما يلقيه العصر فى وجهنا من جديد، فإن كان الجديد مفيدًا وإيجابيًا وخلاقًا فنحن معه ولابد أن نستقيد منه وأن نتجدد منه بقبوله وهضمه وإعادة إفرازه متوافقًا مع رؤيتنا الحضارية وهويتنا الثقافية، وإن كان الجديد غثا لا قيمة له وهو إلى ضياع هويتنا أقرب وإلى الفساد أميل فلنرفضه غير آسفين على عصر آتى بالجديد المدمر وبالحديث المفزع!!.

إن التلاقح بين الثقافات والحضارات مطلوب ومحمود إذا كان هذا التلاقح لصالح الارتقاء بالبشرية ولتحقيق قدر أكبر من رفاهية البشر وسعادتهم وخيرهم . أما إن كان هذا التلاقى الحضارى سيكون لصالح سيادة ثقافة ما تحت ستار تقدمها وما تملكه من قوة عتاد أو قوة تكنولوجيا عسكرية، فهو التلاقى المرفوض. فلا تلاقى يقام على أساس من قوة عدو يحشد العتاد والعدة بمختلف وسائلها لتدمير الآخر وابتلاعه !.

إن الثقافة السائدة ليست هى الثقافة الأفضل أو الأكثر تقدمًا على الإطلاق! بل العكس قد يكون هو الصحيح ! فمن المهم أن نقيس التقدم والأفضلية بمعايير صحيحة. ومن المهم أن تكون هذه المعايير متفق عليها بين الجميع وليست من وضع أصحاب الثقافة السائدة!

وما نقدمه فى هذا الكتاب محاولة لتحديد موقفنا من تلك المصطلحات السائدة مصطلحات الثقافة، التقدم، الحضارة، التنمية. وموقفنا من العلاقات المتصورة بينها. وفى ضوء تحديد هذا الموقف نحاول بيان كيفية الاستفادة من النظريات السائدة ومن التجارب الرائدة فى تحديد طريق التحول من التخلف إلى التقدم. إن هذه التجارب وإن كانت رائدة وحققت نجاحات عديدة فى

مختلف مجالات الحياة، فإنها تبقى تجارب انطلقت من بيئات معينة ومن تصورات ثقافية متباينة، ولذلك فإن نقلها بحذافيرها يعنى الفشل المؤكد. أما إن درست بغرض الاستفادة من عناصرها الإيجابية، وبغرض تطويع تلك العناصر لتوافق بيئتنا وثقافتنا وهويتنا الحضارية فإن هذا سيكون بداية الطريق نحو استنبات بذرة ذاتية للتحول والقفز على عناصر التخلف التى لا نزال نعانى منها إلى صورة جديدة للتقدم نستطيع أن نقول عنها إنها «صناعة محلية» رغم ما استفادته من خبرات الآخرين ومن تجاربهم .

وبالطبع فليس كاتب هذه السطور من المتخصصين لا فى الصناعة ولا فى غيرها من صور الإنتاج . وإنما هو يقدم مجرد اجتهاد ووجهة نظر ذات طابع فلسفى نابع من تخصصه فى الفلسفة، «وما من شىء إلا وللفلسفة فيه مدخل» كما قال الفارابى فيلسوفنا الإسلامى الكبير .

إن ما يقدمه كاتب هذه السطور إنما هو محاولة لوضع أساس شرقى - عربى لفلسفة الثقافة قد يتقاطع أو يتشابه مع بعض الآراء لبعض الفلاسفة الغربيين، ولكنه بالقطع ليس ناقلاً عنهم وليس مؤمناً بكل ما يقولونه ، كما أنه يرفض تمامًا أن يقف موقف المتلقى أو المتفرج ، لأنه يؤمن بأنه قادر على المشاركة الإيجابية فى الحوار حول فلسفة الثقافة من وجهة نظر مختلفة ومبنية على أسس عميقة مستمدة من العمق الحضارى والتاريخى الكبير الذى يستند عليه.

وكاتب هذه السطور يحاول بعد ذلك أن يبحث فى العلاقة بين الثقافة والتنمية والتخلف والتقدم ليكتشف الطريق الأفضل الذى يمكن لشعوبنا أن تسلكه فى محاولتها الجادة للتحول من ثقافة التخلف إلى ثقافة التقدم، ومن ثم للتحول من مجتمعات موسومة - على غير الحقيقة ورغم أنفها - بالتخلف إلى مجتمعات متقدمة فهى تملك معظم مقومات الثقافة المتحضرة ولا ينقصها إلا

تفعيل هذه المقومات واستنهاض إرادة التحدى واستنفار كل القدرات الذاتية المبدعة لأفرادها .

وما من شك أن أى محاولة من هذا القبيل تبقى مجرد محاولة للخروج من النفق المظلم الذى وضعنا فيه دعاة «العولمة» ودعاة «الخضوع» للثقافة الغربية ذات البُعد الواحد .

وما من شك أن هذه المحاولة تحتاج لجهود آخرين ينتمون لتخصصات عدة متباينة حتى تكتمل الصورة وتتضح أمامنا معالم الطريق .

ولست أطلب من القارئ العزيز سوى أن يصبر على قراءة ما قدمته له رغم ما قد يبدو فيه من مواطن قصور أو ضعف تتكشف أمامه . وعليه بعد ذلك أن يتشاغل بالصفح عن صاحبها وبمحاولة سد هذه النواقص وتقوية مواطن الضعف. فبهذا تتكامل الجهود ويثمر الحوار .

وكلى أمل فى أن نجنى جميعًا ثمار اجتهادنا فى الحوار لإعادة بناء ذاتنا الحضارية باستجلاء عناصر هويتنا الثقافية المستقلة .

وكلى أمل فى قدرتنا على خوض غمار التحدى الحضارى الذى نواجهه بدءًا من إدراكنا لأهمية أن يكون لنا رؤيتنا المستقلة لفلسفة ولمعنى التقدم والحضارة.

والله المستعان وهو من وراء القصد

د. مصطفى النشار

القاهرة - مدينة نصر فى : 28/10/2011

الموافق : 30 **رجب** 1419**هـ**